مجلة الدراسات الاجتماعية

مجلة علمية محكمة نصف سنوية تصدر عن جامعة العلوم والتكنولوجيا اليمنية

رئيس التحرير
أ. د. داود عبد الملك الحدابي

نائب رئيس التحرير
د. مهيوب علي أنعم

أعضاء هيئة التحرير
د. عبدالله عثمان الحمادي
د. نوري عبدالودود الجناعي

الهيئة الاستشارية
أ. د. ناصر عبد الله العولقي
أ. د. عبد الواحد الزنداني
أ. د. عبد العزيز المقالح
أ. د. عبد الرحمن عبد ربه
أ. د. عبد الرحمن الشجاع
أ. د. حسن محمد الأهدل

مجلة الدراسات الاجتماعية : المجلد (٧) ، العدد (١٣) ، يناير - يونيو ٢٠٠٢م

توجه جميع المراسلات إلى نائب رئيس التحرير على العنوان التالي :
مجلة الدراسات الاجتماعية - وحدة ضبط الجودة - جامعة العلوم والتكنولوجيا اليمنية - صنعاء
ص.ب : ١٥٢٠١ - هاتف : ٣٧٣٢٤٠ - فاكس : ٣٧٣٢٣٤
البريد الإلكتروني : jss@ust.edu

المنهج اللغوي في تفسير ابن عطية الأندلسي

(المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)

د. ياسين جاسم المحيمد
أستاذ النحو والصرف وعلوم القرآن المشارك
جامعة الإيمان صنعاء

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد

يَسّرَ الله لي أن أقرأ تفسير ابن عطية كلمة كلمة ، أثناء كتابة أطروحتي للدكتوراه التي كان موضوعها (الدراسات النحوية في تفسير ابن عطية) ، وقد اطلعت على جميع طبعات هذا السفر العظيم ، وكنت قد أفدت فائدة عظيمة من طبعة قطر ، التي طبعت على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر ، حيث اهتم هذا الرجل بخدمة تراث أمتنا الإسلامية ، فجزاه الله عنا خير الجزاء

أقول وبالله التوفيق لقد هيأ ابن عطية لنفسه ما ينبغي أن يتوافر من معارف وعلوم وإمكانات، فيمن يتصدى لتفسير نصوص الكتاب الحكيم ، فأعد نفسه لشرف هذه المهمة ، علماً واطلاعاً وفضلاً

ولقد كان لهذا الإعداد - فضلاً عما كان لذوقه الأدبي اللغوي ، وأسلوبه الرائق أثره البين في براعته اللغوية ، وتمكنه من معالجة مسائل اللغة وهو يتصدى لمهمة التفسير ظهر ذلك جلياً في تحليله العميق للألفاظ ، ومعرفته باشتقاقها ، وذكره لجميع الأوجه والاحتمالات اللغوية ، وهو يناقش الآراء المتعلقة بمسائلها ، في سياق عرضه للأقوال والتأويلات الواردة في آيات القرآن الكريم

ولم يخرج ابن عطية في عمله اللغوي في التفسير عن نطاق أقوال العلماء وتأويلاتهم ، وإن لوحظ عليه أنه يحاول لماماً ، الإفلات مما اختطه لنفسه من منهج لغوي في حالات متفاوتة ومتباعدة ، مما يمكن أن يؤخذ عليه

وربما تكون حالات الخروج اليسيرة عن منهجه محاولة لإثبات قدراته ، وعرض إمكاناته اللغوية ومن هذه المآخذ ذكره لشواهد عربية ، لإثبات معان تدور حول لفظ واحد ، يبدو من ورائها أن البحث لغوي لا علاقة له مطلقاً بالغرض الأساسي ، وذكر تحليلات صرفية كثيرة ، كان يمكنه الاستغناء عنها ، لكنه عالم راسخ في العلم فأراد أن يفرغ هذه الإمكانات والقدرات في التفسير وإليك أهم السمات التي امتاز بها منهجه اللغوي

-أ تتبع مظاهر التركيب اللغوي في الآيات الكريمة حيث قام بتحليل كثير من الأساليب النحوية كالاستفهام والنداء ، يقول في تفسيره للآية الكريمة ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ [1] يقول (وأنى) إنما تجيء سؤالاً أو إخباراً عن أمر له جهات ، فهي أعم في اللغة من كيف ومن أين ومن متى ، هذا هو الاستعمال العربي ، وقد فسر الناس أنى في هذه الآية بهذه الألفاظ ، وفسره سيبويه ب(كيف) [2] .

ويقول في تفسيره للآية الكريمة ﴿... قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ﴾ [3] : (ونداء الحسرة على تعظيم الأمر وتشنيعه ، قال سيبويه وكأن الذي ينادي الحسرة أو العجب أو السرور أو الويل يقول قربي أو احضري ، فهذا وقتك ، وفي ذلك تعظيم للأمر على نفس المتكلم ، وهذا التعظيم على النفس والسامع هو المقصود أيضاً بنداء الجمادات ، كقولك يا دار ويا ريح) [4] .

1- سورة البقرة 223 .
2- المحرر الوجيز 1/ 299 .
3- سورة الأنعام 31 .
4- المحرر الوجيز 283 / 284 .

ب الاهتمام بذكر اللغات الواردة في اللفظ ، أو تبيان أصول اللغة التي استشهد فيها بهذا اللفظ يقول في تفسيره للآية الكريمة ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون ﴾ [5] : (... وفي كأيّن أربع لغات كأيّن ، على وزن كعيّن بتشديد الياء المكسورة ، وبفتح العيّن وكايّن على وزن كاعّن وكأين على وزن كعيّن ، بكسر العين وأكثر ما استعملت العرب في أشعارها التي على وزن كاعّن ، فمن ذلك قول الشاعر "

وكائن رددنا عنكم من مدجّجٍ يجيء أمام القوم يَرْدي مقنّعا [6]

وقال جرير

وكائن بالأباطح من صديق يراني لو أصبت هو المصابا [7]

وقال آخر:

وكائِنْ ترى من صامتٍ لك معجبٍ زيادتُه أو نقصُه في التّكلّم [8]

وقد جاء في اللغة التي ذكرتها أولاً قول الشاعر

وكأيّن في المعاشر من أناس أخوهم فوقهم وهم كرام [9]

وهذه اللغة هي أصل هذه اللفظة ، لأنها كاف التشبيه ، دخلت علىّ أي "... وصرفت العرب كأيّن في معنى كمْ التي هي للتكثير ، وكثر استعمالهم للفظة حتى لعب فيها لسان العرب على اللغات الأربع التي ذكرت [10] .

ثم يتابع ابن عطية تبيان وجوه الكلمة ، ليأتي بالوجوه الصرفية كالإعلال والإبدال والقلب ، حتى ليظن القارئ أن الموضوع خرج من دائرة التفسير ، إلى

5- سورة آل عمران 146 .

6- هو عمرو بن شأس من فحول الجاهليين المخضرمين ، بنظر الإصابة 868 ، والأغاني 10/ 13 والمحرر الوجيز 1 / 518

7- انظر الديوان 23، والبيت له من قصيدة يمدح بها الحجاج بن يوسف الثقفي ، ومطلعها

8- البيت لزهير بن أبي سلمى ، ونسبه الجاحظ في البيان والتبيين للأعور الشني ، والصمت والصمات السكوت .

9- لم أقف على قائل البيت انظر المحرر الوجيز 1 /518

10- المحرر الوجيز 518 وينظر الكتاب 2/ 170.

بحث لغوي صرف ، وهذا يدل على قدرة الرجل واتساع دائرة معارفه ، في الوقت الذي نراه يلح على رغبته في عرض كفاءته اللغوية

ج الاعتقاد بأن ألفاظ القرآن عربية لقد وردت ألفاظ في القرآن الكريم أصلها أعجمي ، فانتقلت إلى العرب فاستعملوها في محاوراتهم وأشعارهم ، فلاكت بها ألسنتهم ، وجرت عندهم مجرى العربي الصريح

وقد عقد ابن عطية في مقدمة تفسيره باباً أسماه (باب في ذكر الألفاظ التي في كتاب الله وللغات العجم بها تعلق) ، يقول بعد أن يذكر بعض آراء العلماء في هذه المسألة (والذي أقوله إن القاعدة والعقيدة هي أن القرآن نزل بلسان عربي مبين ، فليس فيه لفظة تخرج عن كلام العرب ، فلا نفهمها إلا من لسان آخر ، فأما هذه الألفاظ وما جرى مجراها فإنه قد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة ، بتجارات وبرحلتي قريش ، وكسفر مسافر بن أبي عمر بن أمية بن عبد شمس إلى الشام ، وسفر عمر بن الخطاب ، وكسفر عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة ، وكسفر الأعشى إلى الحيرة ، وصحبته لنصاراها ، مع كونه حجة في اللغة

فعلقت العرب بهذا كله ألفاظاً أعجميةً غيرت بعضها ، لنقص من حروفها ، وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة ، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها ، حتى جرت مجرى العربي الصريح ، ووقع بها البيان

وعلى هذا الحد نزل بها القرآن ، فإن جهلها عربي ما ، فكجهله الصريح بما في لغة غيره ، كما لم يعرف ابن عباس معنى فاطر إلى غير ذلك ، فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية ، لكن استعملها العرب ، وعربتها فهي عربية بهذا الوجه) [11] ومسألة المعرب والدخيل باب واسع في العربية ، تكلم فيه العلماء وأشبعوه بحثاً فقوله تعالى ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ [12]

11- المحرر الوجيز 1 / 51 .

12- سورة الزخرف 3 .

وقوله تعالى ﴿ بلسانٍ عربي مبين﴾ [13] ، جعل طائفة من مفكري الإسلام تذهب إلى إنكار وقوع المعرب في كتاب الله

فهذا أبو عبيدة معمر بن المثنى يقول" من زعم أن في القرآن لساناً سوى العربية فقد أعظم على الله القول" [14] .

ويقول أبو بكر ابن الأنباري (577هـ) وقال بعض المفسرين صرهن معناه سطح أجنحتهن ، وأصله بالنبطية صرية ، ويحكي هذا عن مقاتل بن سليمان (150هـ) فإن كان أثر هذا عن أحد من الأئمة ، فإنه مما اتفقت فيه لغة العرب ، ولغة النبط ، لأن الله عز وجل لا يخاطب العرب بلغة العجم إذ بين ذلك في قوله جل وعلا ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ [15] " [16] .

وقد وازن أبو عبيد القاسم بن سلام بين رأي شيخه أبي عبيدة ، ورأي السلف الصالح ، وانتهى إلى القول بعربية هذه الألفاظ بعد أن عربتها العرب:، فقال" فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيده ، ولكنهم ذهبوا إلى مذهب ، وذهب هذا إلى غيره وكلاهما مصيب إن شاء الله وذلك أن هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل ، فقال أولئك على الأصل ثم تلفظت به العرب بألسنتها ، فعربته فصار عربياً بتعريبها إياه ، فهي عربية في هذا الحال ، أعجمية الأصل" [17] .

ولكن الشيخ أحمد شاكر رحمه الله لا يعجبه هذا الكلام ويصم القول بوقوع المعرب في القرآن بأنه قول ينبو عن التحقيق ، وإنما ذهب إليه من ذهب إعظاماً لما روي عن بعض الأقدمين في ألفاظ قرآنية أنها معربة ، وعجزاً عن

13- سورة الشعراء 195 .
14- المعرب للجواليقي 4 والمزهر 1 / 226 .
15- سورة يوسف 2 .
16- الأضداد لابن الأنباري 38 .
17- مقدمة المعرب للجواليقي .

تحقيق صحة الرواية ، وعن تحقيق صحة هذه الحروف في كلام العرب ، ثم تقليداً لأولئك القائلين ، وجمعاً بين القولين زعموا [18] .

فابن عطية يتوسط هذه المذاهب ، ويعتدل في قوله ، ويخالف الطبري فيما يذهب إليه ويوافق أبا عبيد بن سلام في أن هذه الألفاظ عربية ، بعد أن لاكتها العرب بألسنتها [19] .

-د الإكثار من الشواهد اللغوية والشعرية

يقول في تفسيره للآية الكريمة ﴿ وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ﴾ [20] : وأما قوله تنوء فمعناها تنهض بتحامل واشتداد ، ومن ذلك قول الشاعر

ينـــ وأن ولـ م يكسبن إلا قنازعاً من الريش تنواء النعاج الهزائل [21]

ومنه قول الآخر يصف رامياً

ح ـ تى إذا ما اع ـ تدلت مفاصله وناء في شق الشمال كاهله [22]

والوجه أن يقال إن العصبة تنوء بالمفاتيح المثقلة بها وقال كثير من المتأولين المراد هذا ، لكنه قلب كما تفعل العرب كثيراً فمن ذلك قول الشاعر

فـ ديت بنفسه نفسي ومالي وما آلوك إلا ما أطيق [23]

ومن ذلك قول الآخر

وتركب خيل لا هوادة بي ـنها وتشفي الرماح بالضباطرة الحمر [24]

18- مقدمة المعرب للجواليقي 11.

19- ينظر فصول في فقه العربية 359 وما بعدها .

20- سورة القصص 76.

21- لم أقف على قائل البيت ينظر المحرر الوجيز 4 / 299

22- المحرر الوجيز 4 / 299 ، واستشهد به الفراء مع سابقه على معنى قوله تعالى (لتنوء بالعصبة) .

23- البيت لعروة بن الورد وهو من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن والمعنى فديت نفسه بنفسي ومالي ومعنى ماآلوك ماأستطيع ينظر الديوان 105، والمحرر الوجيز 4 / 399

وهذا البيت لا حجة فيه إذ يتجه على وجهة متأولة ومن ذلك قول الشاعر

ما كنت في الحرب العوان مغمّزاً إذْ شبّ حرّ وقودها أجدالها [25]

والشواهد النحوية اللغوية كثيرةً جداً في تفسير ابن عطية ، لا مكان في الدراسة اللغوية لحصرها ، ويمكن الرجوع إلى التفسير لرؤية بعض مواطن هذه الشواهد [26] .

هـ الاحتجاج بالحديث والأمثال على سلامة اللغة

لابن عطية علم واسع في الحديث ، يدل على ذلك تمييزه بين الصحيح منه والضعيف إذا تعارضا ، كما فعل في مناقشة مسألة هل بسم الله الرحمن الرحيم من الفاتحة أم لا ؟ فقال بعد أن ساق حديثين يقتضيان أنهما من الفاتحة وهذان الحديثان يقتضيان أنهما من الحمد ، ويرد ذلك حديث ابن كعب الصحيح وساق حديثاً صحيحاً يقتضي أنها ليست من الفاتحة ، وهذا يدل على الاهتمام بالأسانيد ، رغم أنه لا يوردها في تفسيره ، وذلك يتجلى في عبارات مثل (ليس في شيء من هذا التعيين ما يعضده خبر) [27] .

ويظهر مثل هذا الاحتجاج بالحديث في تفسيره للآية الكريمة ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ [28] : (وقوله ولا تقفّ معناه ولا تقل ، ولا تتبع)

24- هذا البيت لخداش بن زهير بن صعصعة من السعراء المجيدين في الجاهلية أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يره ، والبيت في اللسان مادة بنظر ، والضباطرة العظماء .

25- البيت للأعشى ، قيس بن ميمون بن ثعلبة ، قاله من قصيدة يمدح بها قيس بن معد يكرب وقبله:قال فلعمر من جعل الشهور علامة قدراً فبين نصفها وهلالها

والأجذال جمع جذل ، وهو ما عظم من أصول الشجر ، انظر الديوان / 76 ، والمحرر الوجيز 4 / 299

26- ينظر المحرر الوجيز 3 / 251، 4 /189. 4 / 414 ، 4 / 492 ، 5 / 46 ، 5 / 167 ، 5 / 235 ، 5 / 427 . وغيرها كثير .

27- المحرر الوجيز 1 / 60 .

28- سورة الإسراء 35.

قال القاضي أبو محمد لكنها لفظة تستعمل في القذف والعظة ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم" نحن بني النضر لا نقفو أمنا ، ولا ننتفي" من أبينا

وتقول (فلان قفوتي) أي موضع تهمة وتقول العرب

(رب سامع عذرتي ، ولم يسمع قفوتي) ، أي ما رميت به وهذا مثل للذي يفشي سره ، ويعتذر من ذنب لم يسمعه المعتذر إليه [29] .

-و رأيه في إعجاز القرآن

قال ابن عطية وهو يناقش مسألة قيام الحجة بالقرآن على العرب اختلف الناس في إعجاز القرآن بم هو ؟ فقال قوم (عن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات ، وإن العرب كلفت في ذلك ما لا يطاق ، وفيه وقع عجزها) [30] .

وقال قوم (إن التحدي وقع بما في كتاب الله تعالى من الأنباء الصادقة ، والغيوب المسرودة) [31] .

وبعد أن يورد آراء متعددة في الإعجاز يقول (والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن في قدرة أحد من المخلوقين ، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة ، أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ، ثم لا يزال ينقحها حولاً كاملاً ، ثم تعطى لآخر نظيره ، فيأخذها بقريحة أخرى فيبدل فيها وينقح ، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدبر لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ، ويخفى علينا وجهها في مواضع ، لقصورنا عن رتبة العرب يومئذ ، في سلامة الذوق وجودة القريحة ، وميز الكلام

29- المحرر الوجيز 3/ 455.

30- المحرر الوجيز 1/ 52

31- المحرر الوجيز 1 / 52

ألا ترى ميز الجارية نفس الأعشى ، وميز الفرزدق نفس جرير من نفس ذي الرمة ، ونظر الأعرابي في قوله (عز فحكم فقطع) إلى كثير من الأمثلة فصورة قيام الحجة بالقرآن على العرب أنه لما جاء محمد صلى الله عليه وسلم به وقال (فأتوا بسورة من مثله) [32] ، قال كل فصيح في نفسه (وما بال هذا الكلام حتى لا آتي بمثله ؟ فلما تأمله وتدبره ، ميز منه ما ميز الوليد بن المغيرة حين قال (والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالجنون) ، وعرف كل فصيح بينه وبين نفسه أنه لا يقدر بشر على مثله ، فصح عنده أنه من عند الله تعالى) [33] .

وعند قراءة التفسير يلاحظ الدارس أن ابن عطية قد تكلم في الاشتقاق [34] . وفي المشترك اللفظي [35] ، وفي أصل دلالة الألفاظ وتطورها ، كما تحدث عن الأضداد [36] ، والترادف [37] ، والغريب اللغوي [38] ، والتغليب [39] ، كما أسهب في الحديث عن المصادر [40] ، والإعلال [41] والإبدال [42] ، والقلب [43] ، والفتح والإمالة ، والتسهيل [44] ، والإدغام [45] ، والوقف والابتداء ، وقد أحصى الباحث هذه

32- سورة البقرة 23

33- المحرر الوجيز 1/ 53

34- ينظر المحرر الوجيز 2 / 405 ، 462 ، 3 /193، 4 / 138 وغيرها .

35- ينظر المصدر السابق 1 /489 ، 2 / 64 ، 3 / 193 ، 5 / 427 وغيرها .

36- ينظر المصدر السابق 1 / 8 ، 3 / 404 ، 3 /313 ، 4 / 421 ، وغيرها .

37- ينظر المصدر السابق 1 / 553 ، 2 / 120 ، 3 / 23 ، 4 / 427 وغيرها .

38- ينظر المصدر السابق 1 / 511 ، 2 / 77 ، 3 / 69 ، 5 / 370 وغيرها .

39- ينظر المصدر السابق 3 / 128 ، 3 / 521 وغيرها .

40- ينظر المصدر السابق 2 / 149، 2 / 105 ، 3 / 435، 4 / 144 وغيرها .

41- ينظر المصدر السابق 2 / 62، 3 / 269، 4 / 186 ، 5 / 389 وغيرها.

42- ينظر المصدر السابق 5 / 117، 5 / 215 ، 5 / 218 وغيرها .

43- ينظر المصدر السابق تكاد لا تخلوا صفحة في الكتاب منه .

44- ينظر المصدر السابق 3 / 474 ، 4 / 412 ، 5 / 20 وغيرها .

45- ينظر المصدر السابق 2 / 208 ، 2 / 463 ، 3 / 111 ، 4 / 158 .

الظواهر اللغوية في جدول فوجد أنه لا مجال لبسطها لأنها تصلح أن تكون موضوعاً لرسالةٍ مستقلة [46] .

والحمد لله أولاً وآخراً .

46- والهوامش المسجلة أعلاه لم تستوف عشر معاشر ما في المحرر الوجيز .

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. الإصابة في تمييز الصحابة ابن حجر، أحمد بن علي مطبعة مصطفى محمد، مصر 1939م
3. الأضداد، محمد بن القاسم الأنباري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبع الكويت 1960م
4. الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، تحيق عبد الستار أحمد فراج دار الثقافة بيروت 1960م
5. البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل ودار الفكر بيروت، بلا تاريخ
6. ديوان الأعشى، جمع وتحقيق رودلف جابر، طبعة لندن سنة 1928م
7. ديوان جرير بن عطية، شرح وتقديم مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1406هـ 1986م
8. ديوان عروة بن الورد، بشرح ابن السكيت، تحقيق عبد المعين العلوجي، دمشق 1966م
9. الزاهر في معاني كلمات الناس، محمد بن القاسم، أبو بكر ابن الأنباري (328 هـ)، تحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن، (ط) بغداد سنة 1399هـ (دار الرشيد)
10. فصول في فقه العربية ،.د رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الرفاعي، الرياض، الطبعة الثانية 1404هـ 1983م
11. الكتاب، سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان، تحقيق عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة الثالثة 1408هـ 1988م
12. لسان العرب، جمال الدين محمد بن منظور الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي 1417هـ 1997م

13. مجاز القرآن ، لأبي عبيده معمر بن المثنى ، تعليق:د محمد فؤاد سزكين ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية 1401هـ 1981م

14. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز عبد الحق بن عطية ، تحقيق عبد السلام الشافي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1413هـ - 1983م

15. المعرّب من الكلام الأعجمي - أبو منصور الجواليقي ، تحقيق أحمد محمد شاكر دار الكتب 1366هـ .